أثر المناخ

فى مستقبل الامم

ترجمة عن مقال بقلم الزوورث هونتنجتون

تتمة ما نشر فى عدد ديسمبر الماضى

اختتمنا المقال الاول من هذا البحث بهذه العبارات : — « هذه اعتبارات تنطق حقائقها بانها أكثر انطباقا على قياس المنطق من أية اعتبارات أخر . ولكن ما ذا نعرف عن الماضى ؟ اليس نشوء المدنيات القديمة فى مناطق تقرب حدودها من خطوط العرض السفلى دليلا قويا ينقض النظرية المناخية من اساسها ؟» ثم قلنا بأن هذا البحث سوف يدور حول هذا السؤال العلمى الخطير .

اما الاستاذ هونتنجتون فيعود ببحثه هذا ورده على هذا الاعتراض الخطير الى علم الانثروبولوجيا — أى الانسان — دون غيره من علوم الحياة .

يقول . افرض انك انسان همجى على الفطرة الاولى عارى الجسد ومن غير أن تعرف كيف تولد النار لتنتفع بها ، وانك لا سكن لك تأوى اليه ، وان مثلك فى كل هذه الاشياء مثل الحيوانات السائمة . لا جرم انك فى تلك الحال ترغب فى ذلك المناخ الذى عرفنا من قبل أن حده الافضل يتراوح بين الدرجتين الاحترازيتين ٦٠ شتاء و ٨٠ صيفا بميزان فارنهيت ، وأن تكون الزوابع الجوية على كثرة كافية لان تشبع الهواء برطوبة معتدلة وتغيرات فصولية متتابعة .

يمكننا الآن ان نتساءل عما يمكن ان يحدث اذا اتفق أن يظهر فرد أو جماعة خصت بقدر من النبوغ حازته بالنشوء والتطور على مدى عدة اجيال متتابعة ، حتى انتهى بها ذلك الانقلاب الى استكشاف النار وكيفية توليدها ؟ لا

جرم أن برودة الطقس مع وجود النار تفقد كثيراً من قسوتها وما تسبب من انهاك ومتاعب . وبهذا يزداد غشيان البقاع التي هي اكثر برودة واشد جفافا من المساحة متى تقطنها الجماعة . أما في البقاع التي هي اكثر دفئاً ورطوبة ، فيكون الامر على العكس من ذلك ، لان الهمج فيها يكون اقل احتياجاً الى استعمال النار لانها لا تكون من الاشياء المرغوب فيها كثيراً ، بل أن النار في طقس حار تكون من أبعث الاشياء على الضجر والتململ .

ان استعمال النار في الوقت المناسب لا بد من أن يؤدي الى اختراعات واستكشافات أخر . فان الحوادث الاتفاقية والاختبارات التي تقع خلال كل يوم لا بد من ان تنتهي بان تعلم الهمج كيف يمكنهم أن يصوروا بها اسلحة خشبية يتخذونها تقية من الحيوانات وان ينضجوا بها مواد لا يمكن أن تتخذ طعاما وهي غير اذ تكون كريهة الطعم او عسرة الهضم او غير مستطاع قضمها ومضغها . اذن فلا بد من أن يكون استكشاف النار قد وجه انتباه الانسان الى اختراعات ما ، كما كان عاملا في أن يزداد عدد الناس في بقاع مخصوصة لانهم يجدون طعاما أزيد عن الحاجة في تلك البقاع . فاذا فرضنا ان الهمج في حالاتهم الفطرية الاولى كانوا جميعاً على نسبة واحدة من الكفايات والمواهب اذن لتعين علينا ان نعتقد بأن اكبر نسبة من التقدم المدني وازدياد عدد النسمات ، لا بد من أن يكون قد حدث في البقاع التي هي أشد برودة وجفافا من المنطقة المأهولة من الأرض . وفي مثل هذه البقاع تكون النار من الاشياء التي يحتاج اليها ، كما أنه من السهل توليدها ، في حين انك تجد ان الرغبة فيها في البقاع التي هي اكثر دفئا ورطوبة كانت أقل وتوليدها أصعب . وعلى ذلك تقضي بان فن توليد النار ، وهو في معتقدنا اكبر المستكشفات الفطرية الاولى اثراً في حياة الانسان ، لا يمكن الا ان يكون قد اثر في « الحد المناخي الافضل » ومن ثم بدأت مراكز التقدم المدني الانساني تبتعد شيئاً فشيئاً عن خط الاستواء الى بقاع اكثر برودة ، ولكن في دائرة المنطقة الارضية التي عرفت بالانسان في العصور الاولى

ومنذ ذلك الحين توالت المخترعات والمستكشفات كبيرة وصغيرة ، كما أبان عن ذلك الاستاذ «فيلان» وكان لكل منها أثر مشابه لاثر توليد النار ، على اختلاف في الكيف والمقدار . ومن أكثر الاشياء احتمالا ، بل نقول من الاشياء التي نرجحها تغليبا انه وجدت جماعة من الجماعات في أزمان بعيدة جدا عن الازمان التي ولدت فيها النار ، استطاعت بمهارتها ان تدرك ان جلود الحيوانات اذا اتشح بها كانت من اكثر الاشياء المرغوب فيها في طقس تشتد برودته . اذن فلا بد من أن تكون فكرة الاكتساء ، على ما فيها من البساطة ، قد زودت الناس بعامل جعلهم يشعرون بالرخاء ومكنهم من أن يحتفظوا بصحتهم في بقاع باردة لا يمكن البقاء فيها بغير كساء . وهذا الاستكشاف بدوره لا بد من أن يكون قد جر الى استكشافات أخرى . لان الرغبة في الحصول على كساء احسن صنفا او اقل نفقات او الرغبة في الحصول على اكسية اجمل شكلا أو ابعث على الدفء ، لا بد من أن يكون قد اوقع الانسان الهمجي في مشكلات فكر من ثم في ان يستقوى عليها وان يجد لها حلا .

اما اختراع المآوى الصناعية مصنوعة من جلود الحيوانات أو اغصان الاشجار او غير ذلك من المواد فكانت ذات أثر لا يقل عن آثار ما أسلفنا القول فيه من مخترعات . ففي خلال الخطا التي خطاها الانسان نحو التقدم والارتقاء كانت هذه المآوى من افعل الاشياء على زيادة مقدار المساحات الأرضية التي استطاع الانسان فيها أن يحتمل قساوة البرد خلال فصل الشتاء . وفضلا عن هذا فانها كانت باعثا قويا على أحياء نزعة الاختراع في الفكر الانساني وازكائها بالموحيات والتصورات .

سأل احد الهمج — « ان اكواخنا التي نصنعها من الجلد تفسد وتتحلل ، فكيف يمكننا أن نحفظها من الفساد ؟ هنا ثقوب ينفذ منها المطر فيغشى أجسامنا .

كيف يمكن ان نتقى هذه الثقوب ؟ اذا اشعلنا داخل الكوخ ناراً فانها تهيج أعيننا وتبعث فيها الدموع ، فضلا عن انها تحرق الكوخ وتدمره تدميراً . كيف نستطيع أن ندفأ وفى الوقت ذاته نتقى هذه المخاطر ؟ »

وانك لن تجد من بين العديد الوافر من المخترعات التى انجبتها عبقرية الانسان ، اشكالا كان اكثر إحياء لنزعة التفكير الجدى من تلك المشكلات التى صادفته إذ بدأ يفكر في وضع القواعد الاولية فى هندسة البناء . وعلى هذا نقضى بان مشكلات الحياة كانت تزداد تعقيدا ، وانها كانت اشد تأثيراً فى صد تيار التقدم ، كلما انتقل الانسان من بقاع دافئة الى أخرى باردة .

— ٥ —

والآن يجب علينا ان نلاحظ وجها آخر من وجوه الاشكالات التى صادفت الانسان فى تقدمه نحو الاقطار الباردة من مناطق الارض . فان توليد النار واستكشاف طرق الاكتساء و بناء المآوى قد زود الانسان الاول بعوامل مكنته من أن يهاجر الى اقطار أشد برودة ، ولكنها فى الوقت ذاته قد دفعته الى منزعين آخرين من منازع التقدم لا يجب أن نهمل الكلام فيهما . فقد عرفنا من قبل أن درجة معتدلة من درجات التغاير المناخى عامل من اثمن العوامل فى حفظ الصحة والنشاط طبيعيا وعقليا . فاذا لاحظنا أن قابلية التغاير المناخى تزداد بالانتقال من طقس حار الى آخر بارد ، أيقنا بان السلالات الاولى التى كانت أقدر على الانتفاع بالمخترعات التى أدى اليها فن توليد النار والاكتساء واقامة المآوى ، هى التى كانت اكثر قدرة من غيرها على الهجرة الى اقطار أشد برودة . و بذلك تتحسن صحتهم وتزداد قدرتهم على العمل بما ينبعث فيهم من نشاط ، و يكونون اكثر مقدرة على التطلع الى غايات لا يتطلع اليها غيرهم ، بل ينزعون الى التفكير فى مخترعات أخرى ، وفى أوجه من التقدم والارتقاء لا ينزع اليها شىء من

السلالات الأخرى .

وهنالك وجه آخر من الأمر لا يجدر بنا اعقاله . ذلك هو الحاجة الى بعد النظر والتوفير والاقتصاد والعناية بوضع الخطط ، وغير ذلك من الضرورات التى تنشأ قسراً بحكم المهاجرة الى إقطار يكون من اللازم على الانسان ان يتخذ افيها عدته لمواجهة الصعاب التى تنشأ عن حدوث فصول مناخية يشتد فيها الجفاف أو يقرس البرد . ما هي كمية الطعام التى تلزمنا لقضاء حاجة الشتاء ؟ واى نوع من الحبوب أو الجذور او غير ذلك من أنواع الطعام اكثر قابلية للبقاء بغير فساد من غيرها ؟ كيف يمكن أن نحتفظ بموادنا الغذائية من غائلة الحشرات والحيوانات القارضة وغيرنا من بنى الانسان وغير ذلك من الاعداء ؟ وماذا نفعل بالوقود ؟ وهل لدينا من الثياب التى نحتاج اليها قدراً كافياً . ومن اى نوع نكتسى ؟ هل نأكل كل ما نشعر باننا فى حاجة اليه من الطعام كل يوم ؛ أم يجب علينا أن لا نأكل الى حد الشبع واقل من الحاجة حتى تكفى المؤونة من الغذاء حتى يأتى فصل الدفء والحرارة ؟ وكيف يمكننا أن نستقوى على مؤثرات الفصول البعيدة عن الاعتدال ؟ هذه الاسئلة ومئات غيرها مما يجرى مجراها هى طابع الاسئلة التى قامت فى عقول اولئك الذين عاشوا فى بقاع يختلف فيها الصيف عن الشتاء اختلافا كبيراً . وهنا نتساءل اية من العوائق التى عمل الانسان فى سبيل الاستقواء عليها وتذليلها كانت أشد من هذه أثراً وابلغ فعلا ؟ واى البواعث كانت فعل فى تحريك مراكز المدنية وانتقالها الى اقطار أشد برودة من تلك المخترعات الضرورية التى وقع عليها الانسان الاول وساعدته على أن يعيش باستمرار فى بقاع يقرس فيها برد الشتاء على الدوام ؟

لا جرم أن هذه المخترعات الفطرية ، على الرغم من ظهورها الأعيننا بمظهر الفزارة والسذاجة ، كانت على كل الاحتمالات ، اصعب تذليلا ، بل اكثر تنشيئاً واشد ضرورة من أى من المخترعات الحديثة على ضخامتها وعظم قدرها .

ان سلسلة المخترعات التي بدأت بتوليد النار والكساء واتخاذ المأوى وحفظ المواد الغذائية قد أخذت ترتقي وتتطور تطوراً بطيئاً متوازن الخطا منذ ذلك العهد العهيد الى الآن . على أن اختراع مداخن التدفئة التي نراها في البيوت في المناطق الباردة ليس الا تطوراً جديداً عن المخترع القديم . فمنذ أزمان بعيدة عمد الناس الى اشعال النار داخل بيوتهم ، ولكن تراكم الدخان الذي يتولد عنها كان من أبعث الاشياء على الألم والامتعاض . ولما كان من الضروري للانسان أن يختار بين احد امرين فاما ان يوقد ناراً وأما أن يتعرض لقر البرد الشديد ، استطعنا ان نصور لانفسنا مقدار ما كان للمخترعات القديمة في المدنية الحديثة من أثر في زيادة الرفاهية والجمال . ولا يغيب عنا أن إضاءة المنازل بمشاعل غير محجوبة نارها بزجاج ، يعطل تقدم العلوم كما يفقد الانسان القدرة على الاشتغال بالفنون الضرورية كفن الكتابة أو التصوير او الموسيقى . وكذلك شبابيك النوافذ فانها تكاد تكون معدومة النفع لأنها اذا اغلقت تركت المنزل في ظلام حالك وتملؤه بالدخان اذا اشعلت داخله نار خلال فصل البرد . ومثل هذه الحالات تحول غالباً عن أن يتمتع الانسان بتلك الفترات السعيدة التي يتمتع بها الآن في فصل الشتاء اهل المدنية الحديثة .

وكما استقوى الانسان على البرد بالنار ، فمن الجائز جداً أن يستقوي على الحرارة باختراع يخترعه في المستقبل البعيد . وعلى ذلك يمكن أن تنتقل مراكز الحضارة مرة اخرى الى الاقطار الحارة .